حرف الهاء

هشام بن العاص رضي الله عنه

جسر معركة أجنادين

صحابي، قرشي، سهمي، قديم الإسلام.

أحد شهداء الإسلام البررة، وإن كان أبوه «العاص بن وائل» من كبار الكفرة الفجرة، وأمه «أم حرملة بنت هشام» أخت الشقي «أبي جهل»، وهو أخ لعمرو بن العاص، والعاص أحد المستهزئين الخمسة الذين كانوا يسخرون من رسول الله ﷺ ومن الدين الذي جاء به من فضل ربه، وقد كفاه الله شرهم، وخلصه منهم بما شاء، على يد كبير الأمناء، جبريل عليه السلام وأشار إلى ذلك التنزيل العزيز بقوله ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٥]. وقد بلغ «العاص» في سخريته المدى، كما يظهر من قصته مع الصحابي الجليل «خباب بن الأرتّ» رضي الله عنه.

كان «خباب» قَيْناً[1] يصنع السيوف، فجاءه «العاص بن وائل» وأوصاه أن يصنع له منها، ولما أنجزها، أقبل «العاص» فأخذها، واستمهله في دفع ثمنها، حتى إذا طال الأمر على «خبَّاب» ذهب إلى «العاص» وطالبه بدينه، لكن السفيه الساخر، قال: قل لي يا خبَّاب، أليس يزعم صاحبك الذي اتبعت دينه، أن في الجنة ذهباً وفضة وثياباً

---

(١) القَيْن: الحَدَّاد.

وخدماً؟ قال له خباب: بلى، فقال السفيه هازئاً: فأنظرني إذاً إلى يوم القيامة حتى أرجع إلى تلك الدار، فأقضيك حقك هنالك، فوالله! لا تكونَنَّ يا خباب، وصاحبك آثر عند الله مني، ولا أعظم حظاً. ولم يلبث الوحي أن نزل بقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ [مريم: ٧٧ـ ٨٠]. يا له من سفيه ماكر، وساخر غادر، وكافر فاجر! ولكن يوم تبلى السرائر، لن يكون له من قوة ولا ناصر.

واهتبل[1] «هشام» غفلة من أبيه فأسلم، ثم فَرَّ بدينه مع إخوانه المهاجرين إلى الحبشة، ثم عاد إلى مكة، فعلم أن رسول الله ﷺ قد هاجر إلى المدينة، فاتعد «هشام» مع صاحبيه، «عمر بن الخطاب» و«عياش بن أبي ربيعة» على اللحاق برسول الله ﷺ في المدينة، واتفق الثلاثة على أن يتواجدوا صباحاً عند «التناضب» ومن لم يحضر في الموعد، انطلق صاحباه دونه. وعلم «العاص» بإسلام ولده «هشام» فوكَّل به عيناً يرصد تحركاته، فلما أراد أن يخرج إلى موعده، قبض عليه، واقتيد إلى أبيه، فأمر بسجنه، واضطر «عمر» و«عياش» إلى سلوك طريق المدينة وحدهما، ثم وصلاها بسلام. ولما طال على «هشام» السجن والعذاب، أكره على النطق بكلمة الكفر بيد أن قلبه كان مطمئناً بالإيمان، وكان الهدف مما صنع أن يحصل على حرية الحركة والانتقال التي منعها أيام سجنه، ولكن صدق القائل:

اشتدي أزمةُ تنفرجي ... قد آذن ليلك بالبَلَج

(١) اهتبل: اغتنم.

ذلك أن جبريل عليه السلام حمل إلى رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٥] فكتبها «عمر» رضي الله عنه، وأرسلها إلى «هشام» بمكة مع ثقة مأمون، ولما قرأها «هشام» لم يفقه فحواها، فراح يكرر تلاوتها ولكن دون جدوى، فلما أعياه فهمها رفع بصره إلى السماء، وقال: (اللَّهم فَهِّمْنيها)! وكان رأي «عمر» والمحبوسين قبل نزول هذه الآيات، وكذلك كان رأي بعض الصحابة: أن من افْتُتِنَ فإن الله لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، لأنهم رجعوا إلى الكفر بعد أن آمنوا بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، فجاءت الآيات مصححة للرأي الخاطىء الذي ساد قبل نزولها، واستجاب الله تعالى مُفَرِّجُ الكروب لدعاء «هشام» وفهَّمه المراد منها، وشرح صدره إلى أنها نزلت فيه وفي أصحابه، فانتابته فرحة عارمة، وأحس بشوق غامر إلى لقاء الحبيب الأعظم ﷺ، ثم امتطى ناقته، ويمم شطر المدينة، وكان وصوله إليها بعد عودة المسلمين من غزوة الخندق.

ولزم «هشام» مجالس رسول الله ﷺ، ولم يكن يطق البعد عنه، بعد أن طال فراقه له بسبب قضبان السجن التي كان يقبع خلفها بمكة، وثابر على حضور المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى التحاقه بالرفيق الأعلى.

وفي سنة ثلاثة عشرة للهجرة، في خلافة «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه أمر «الصديق» بإعداد جيش لقتال الروم في «أجنادين»

وكان «عمرو بن العاص» هو الأمير، وخرج «هشام» مع أخيه «عمرو».

وقد أخرج ابن الأثير في موسوعته «أسد الغابة»[١] حديث «خالد بن معدان» حول تلك الغزوة، ونتيجتها، فقال: [لما انهزمت الروم يوم «أجنادين» انتهوا إلى موضع ضيق لا يعبره إلا إنسان بعد إنسان، فجعلت الروم تقاتل عليه، وقد تقدموه وعبروه، فتقدم «هشام» فقاتلهم حتى قتل، ووقع على تلك الثُّلْمة فسَدَّها، فلما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يوطئوه الخيل، فقال «عمرو بن العاص»: أيها الناس! إن الله قد استشهده، ورفع روحه، وإنما هو جثة، فأوطئوه الخيل، ثم أوطأه هو، ثم تبعه الناس حتى قَطَّعوه، فلما انتهت الهزيمة، ورجع المسلمون إلى المعسكر كر عليه «عمرو» فجعل يجمع لحمه وعظامه وأعضاءه، ثم حمله في نِطَعٍ فواراه]، ولما بلغ ذلك «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه قال: [رحمه الله، نِعم العَوْنُ للإسلام كان]، لقد كان جسراً يوم أجنادين، أوصل النصر للمسلمين، رحم الله «هشام بن العاص» فقد سلك سبيل الإخلاص.

(١) أسد الغابة (٤/ ٢٨٤).